من الأدب الغربي

عندما يسأم الشاعر الحياة

للأستاذ إبراهيم سكيك

يتعرض كل إنسان لفترة من الزمن تطغى عليه في خلالها موجة من اليأس يرى الحياة وهو يخوض عبابها عابسة مظلمة لا يتلذذ بجمالها أو يبتسم لفاتنها، ولا يؤخذ بسحرها أو يبهر بروعتها، فتبدو له بدائع الكون كئيبة قاتمة تبعث على الملل والضجر فينبعث منه أنين خافت وتأوه مكبوت، ويتردد في نفسه خاطر الحزن واليأس، وتستعر بين جوانحه لوعات الشجن والأسى، ويلم بخياله طيف الموت والفناء، ولا يزال على هذا الحال من العذاب والشقاء حتى ينبعث نور من الأمل يبدد دجنة الحياة وديجور اليأس

وقد مرت هذه الفترة اليائسة بكثير من شعراء العاطفة والوجدان فأذكت قرائحهم الشعرية وألهبت حواسهم الفكرية فنفحوا الأدب بما جاد به يراعهم من نظم ونثر. وفي هذا المقال رغبت أن أقتطف نبذاً في هذا الموضوع من الأدب الإنكليزي أترجمه إلى قراء العربية:

أقتبس أولا قصيدة للشاعر المعروف «ملتون» الذي كثيراً ما يشبهه الأدباء بالمعري قالها عند ما كف بصره وتسرب اليأس إلى نفسه وهذه ترجمتها:

عندما أفكر في نفسي كيف فقدت نور بصري قبل أن أقطع نصف الشوط الذي قد اقطعه في هذا العالم المظلم الرحيب، وكيف أن تلك الموهبة الأدبية التي تكمن في نفسي ولا ريب أن في كبتها قتل لتلك النفس التي ترغب في استغلالها لخدمة خالقها وتقديم واجباتها إليه لئلا ينحى عليها باللائمة، عندما أفكر في كل ذلك أتساءل بلهف: هل يتطلب الله مني العمل في حين أنه يمنن علي بنور البصر؟.

بيد أن «الصبر» يوقف هذه الشكوى ويبدد حيرتي فيجيب على تساؤلي قائلا «ليس الله في حاجة إلى عمل الناس ومواهبهم، وأن أولئك الذين يتحملون نيره اللطيف ليخدمونه الخدمة الكبرى. نعم يخدمه أولئك الذين يقفون منتظرين قضاءه من غير ضجر أو ملل. أما هو جل جلاله ففي غنى عنا؛ لأن ملكوته عظيم يسعى في مرضاته ألوف الملائكة الذين يجوبون البراري والبحار دون تعب أو نصب.!!

* * *

وهذا الشاعر الروائي «سكوت» (١٧٧٠ — ١٨٣٢) يصف منظراً رائعاً يفقد روعته التي اعتادها لأنه كان في أواخر أيامه في ضيق مالي شديد اضطره لإجهاد نفسه وأخيراً لإرهاق جسمه والقضاء عليه في أيام بائسة وصف في أثنائها هذا المنظر بقوله:

أرى الشمس على سفح تلة «وردلو» تقوص لتغيب وراء وادي «إترك» والريح الغربية هادئة لا صوت لها، والبحيرة ترقد نائمة عند أقدام التلة. غير أن هذا المنظر بجلال روعته لا يحمل بين طياته تلك الألوان البراقة والجاذبية الخلابة التي كان يحملها في زمان سالف وعهد غابر.

مع أن يد المساء تطلي بوهيجها شاطئ «إترك» فتكسبها صبغة أرجوانية. ألقيت نظرة على ذلك السهل لأرى تيار نهر «تويد» الفضي ينساب متهاوجاً في مجراه، وأنقاض هيكل «ملروز» قائمة في كبرياء إلى جانب البحيرة الوادعة.

لكن الهواء المطري والتلة والغدير والبرج والشجر، مالي أراها تبعث الملل؟ هل هي كما كانت بالأمس، أم أن التغيير هذا في نفسي فقط؟.

ويلاه! كيف يمكن للوح المقوس المحطم أن تزخرفه يد الدهان؟ وكيف يمكن للقيثارة ذات الأوتار المتشنجة غير المنسجمة أن تتناسق أنغامها مع صوت المطرب الشادي؟

هكذا كل منظر رائع تتضاءل روعته في نظر العين المتألمة. وكل نسمة عليلة من الهواء اللطيف تبدو للمحموم زوبعة قارصة. وكل عرائش البادية وجنات عدن قاحلة كهذا المنظر في نظري.

* * *

وهذا شاعر الطبيعة وليم وردزورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) وكان شاعر البلاط في عهده يصف جمال الكون وهو في شيخوخته وصفاً مشابهاً لوصف «سكوت» فيقول: لقد مضى زمن كان فيه المرج والبستان والغدير والأرض وكل منظر اعتيادي يظهر لي

موشحاً بنور قدسي.

وكأنما أفقت من حلم مروع فأراها الآن مغايرة لما كانت عليه في سالف الأزمان؛ وأني وجهت نظري في الليل أو النهار تظهر أمامي الأشياء التي كنت أراها من قبل يظهر قوس قزح ثم يتلاشى، وتفتح أزهار الربيع الجميلة ويفيء حولها القمر الساطع في الليالي الصافية، ويتلألأ ماء الغدير في تلك الليالي القمرة، وتشرق الشمس فتخلب الألباب، بيد أني أينما ذهبت أشعر بأن مجداً سالفاً قد زال عن وجه الكون.

* * *

ويقارب هذا الوصف مانظمه زميله الشاعر « شلي » وهو يتحسر على الماضي ويتألم لحاضره فيقول:

أيها العالم، أيتها الحياة، أيها الزمن، يامن أقف على آخر درجات سلمك وأنا أرتجف فرقاً حين أنظر إلى أسفل حيث درجات الماضي البعيد.

متى يعود مجدك وعظمة أيامك التي ولت؟

آه! لن تعود! لن تعود!

إن السعادة قد طارت من أيامي ولياليَّ.

فالربيع الجميل والصيف النضير والشتاء الأبيض تحرك في فؤادي مشاعر الأشجان دون أن تجلب شيئاً من المسرة والابتهاج. فمتى يعود لنفسي المرح والحبور:

آه! لن يعود! لن يعود!

وفي فترة من اليأس الشديد صرخ بهذا الشاعر السيء الحظ عندما كان بعيداً من وطنه يقاسي مرارة الغربة وألم البعد عن الوطن وفرقة الأحباب بعد أن خرج على والده وهجر وطنه فتكبد مشقات لا توصف، في هذه الفترة نظم قصيدة يدعو فيها نفسه إلى العودة لأرض الوطن فيقول:

هيا فإن المرج مظلم حالك بعد أن امتصت السحب آخر أشعة السماء الشاحبة.

هيا فإن الرياح المتجهمة تنادي الظلام؛ ولاريب أنه سيلبي النداء فيغطي جميع أنوار السماء كما لو كان كفناً شديد السواد.

لا تتريث فقد مضى الوقت، وكل صوت في الطبيعة يناديك بالإسراع لا تغرينك دمعة من صديق أو نظرة من حبيب مهما بالغت في توسلاتها؛ لأن الواجب يدعوك لأن تعود إلى العزلة والانفراد.

هيا أسرع، أسرع إلى وطنك الهادىء الحزين، وهناك اسكب الدموع المريرة على موقده المهجور، وارقب ظلاله القاتمة وهي تتحول من هنا إلى هناك كالأشباح، وانظر إلى تسابيح غريب هناك سداه الكآبة ولحمته المرح. إن السحب التي تسير في السماء لتخلد إلى الراحة في منتصف الليل عندما تسكن الرياح المتعبة، وكما تسكن هذه الرياح فإن القمر كثيراً ما يريح نفسه فيغيب عن عالمنا المترع بالأحزان، وهذه البحار والمحيطات تجد لنفسها فترات تريح فيها أعصابها من الاضطراب المستمر.

كل مايتحرك إذاً أو يكد أو يحزن لابد له من إغفاءة مريحة.

أما أنت فلن ترى الراحة إلا في القبر حيث الخلود الأبدي.

غزه — ابراهيم سكيك

رحلات

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر في الباكستان

وهي سفر جليل في التعريف ببلاد تجاورنا وتواصلنا، والتنبيه إلى رعاية ما بيننا وبينها من أواصر ووشائج أحكمها الله والتاريخ، وهي تمتاز برقة الأسلوب ودقة الوصف وإيراد الطريف من الملح والنوادر في الأدب والتاريخ والاجتماع تزيد عليها فصول من الرحلات الثانية التي ستظهر قريباً.

ثمن هذا المجلد ثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد

وهو يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة